مستقبل العربية كلغة عالمية
رهن بمستقبل العرب

عبد السلام العجيلي
أديب وكاتب- سوريا

1 - إن تحديد انتشار اللغة العربية في العالم ليس ناجما عن مشاكل متعلقة باللغة نفسها، بل عن أسباب متعلقة بالأمة العربية ومنزلتها بين أمم العالم ومستواها الحضاري في العالم المعاصر. ليس أدل على هذا من أن اللغة العربية انتشرت بسرعة فائقة بعد ظهور الإسلام ونهضة العرب الحضارية التي تلت خروجهم من جزيرتهم. لم تقف أمام انتشار اللغة حينئذ أية مشكلة من المشاكل التي تثار الآن كتعقيد النحو والصرف وعسر الكتابة وصعوبة مخارج الحروف.

فتخلف العرب الحضاري هو المسؤول عن الحد من انتشار اللغة العربية بين الأمم التي ليست هذه اللغة لغتها. وحين لا يكون عند العرب ما يغري الشعوب الأخرى بالتماسه من منابعه، من معطيات ثقافية وفنية أصيلة، وحين لا يغزو العرب أمم العالم لا بقوتهم ولا بعملهم، تبقى لغة العرب لغة ثانوية لا يتكلف أحد جهذا في تعلمها غير ذوي الفضول ومحبي الغرائب، مهما كانت اللغة من اليسر أو قرب التناول.

2 - مما أسلفت يتبين أن ليست هناك مشكلة رئيسية ليكون حل لها. ومستقبل اللغة العربية كلغة عالمية رهن بمستقبل أهلها الناطقين بها.

ولا شك أن هناك مشاكل هامشية نستطيع أن نسميها صعوبات لا تخلو من مثلها أية لغة سواء كانت واسعة الانتشار أو قليلته. ومعالجة هذه الصعوبات

تيسر تناول اللغة وتعلمها، ولكنها لا تعطيها القدرة على فرض نفسها كلغة عالمية.

3 – في رأيي كل لغة يتكلم بها الناس ويكتبونها تصلح للتدريس الجامعي. واللغة العربية أصلح من كثير غيرها من اللغات لكثرة مفرداتها ولدقة الفروق بين معاني المفردات المتقاربة منها، ولمرونة التركيب فيها، ولماضيها الحضاري. ولأنها كذلك لغة جماعة كبيرة من الناس لهم تراثهم الجليل في التاريخ وللأوطان التي يسكنونها قيمة في حاضر العالم ومنزلة كبيرة منتظرة في مستقبله.

4 – العلم العصري سواء كان تدريسا في الجامعة أو بحثا علميا هو علم غربي البيئة والأصول أجنبي على اللغة العربية، قد تلقاه الأساتذة والبحاث باللغات الأجنبية في الغالبية العظمى من الحالات.

والمشاكل التي تعترض الأساتذة الجامعيين في تعليم العلم والبحث في اللغة العربية مشاكل على نوعين:

النوع الأول: مشاكل نفسية مصدرها ألفة الأساتذة لغة الأجنبية في تفكيرهم العلمي واقتران المعطيات العلمية في أذهانهم بالتعبير الأجنبي الذي درسوه فيه، أيا كانت اللغة الأجنبية تلك أفرنسية أو إنكليزية أو ألمانية أو روسية. هذا الاقتران وتلك الألفة يؤسسان في نفس الأستاذ الجامعي اقتناعا بعجز اللغة العربية التي تلقى ثقافته العلمية بغيرها، عن أن تكون وعاء متسعا للمعارف التكنيكية أو البحث العلمي.

وهذه المشاكل النفسية تحتاج في حلها إلى إيمان الأساتذة الجامعيين والبحاث بأمتهم وبلغتها وبمستقبلها وطبيعي أن الإيمان بالأمة لا يحدث في يوم وليلة، فهو نتيجة للتربية الوطنية الصحيحة. وكذلك الحال في الإيمان باللغة فهو لا يكون بأمر أو قرار رسمي، بل لا بد للأستاذ الجامعي من أن يكون قوي الاطلاع على لغته الأم متذوقا لقيمتها التاريخية المتمثلة في تراثها المتوارث طوال أربعة عشر قرنا. أما الإيمان بمستقبل الأمة فهو نتيجة ملازمة

لمعايشة الأستاذ الجامعي لواقع الشعب الذي هو أحد أفراده بالاطلاع على مشاكله وحاجاته والتعرف على إمكانياته الكامنة وطاقاته المحدودة. فالأستاذ الجامعي في العالم العربي المعاصر يجب أن لا يكون في عزلة. إنه، لكي يقوم بما عليه أن يقوم به، يجب أن يكون رائدا وطليعة في بناء الأجيال الجديدة التي تفتقدها أمته بين الأمم، أعني بها الأجيال العلمية.

النوع الثاني: من المشاكل التي تعترض الأساتذة الجامعيين في هذا المجال مشاكل واقعية مصدرها اللغة العربية نفسها. فنحن نعرف ونعترف بأن لغتنا لم تصبح بعد لغة علمية متكاملة وأن قصور اللغة العربية في هذا المجال يعود إلى أسباب تاريخية وإنسانية خارجة عن إرادتنا نحن، وعلينا نحن بإرادتنا وتصميمنا أن نمحو هذا القصور ونعطيها الصفة التي تنقصها لتصبح مثل غيرها لغة صالحة لتدريس العلوم والبحث فيها. وهذا أمر لا يمكن أن يحدث في يوم وليلة، أو أن يقوم به فرد أو أفراد قلائل. على كل مدرس وباحث أن يأتي بما يقدر عليه في مجاله، مستعينا بجهود زملائه، مساهما بقسطه من الجهد والابتكار، حتى يتأتى للغة العربية أن تصبح أداة وافية في ميدان العلم مثلها هي في ميادين الفكر والأدب ومثل كل لغة عالمية يثق أهلها بذاتهم ويحترمون أنفسهم.

5 – المصطلح العلمي قد يكون اسما أو فعلا. وهو في هذه الحالة كلمة مكونة من جذر بسيط أو عدة جذور مركبة ترجع في أصولها إلى اللاتينية أو الإغريقية في غالب الأحيان. ويلحق بهذا الجذر أو تلك الجذور إضافات وحيدة أو متعددة مما يخلق منها كلمات جديدة تخضع في تكوينها إلى أصول الصرف والاشتقاق في اللغات العربية. وقد يكون المصطلح العلمي صيغة رياضية أو كيميائية معبرا عنها بالأرقام والحروف اللاتينية واليونانية، أو كلمات مخترعة مختصرة لجملة مصطلحات علمية ممثلة بأوائل حروف جذور تلك المصطلحات.

وطبيعي أن لا يكون هنا اندماج هذا المصطلح العلمي باللغة العربية الفصيحة ذات الأصول الثابتة في التكوين والاشتقاق، ذات الأوزان المحدودة لصيغ الأسماء والأفعال، وذات مخارج الحروف المعروفة والمحددة. غير أن

العقبات التي تحول دون هذا الاندماج ليست عقبات لا تذلل كما أن اللغة العربية ليست الوحيدة التي اعترضتها هذه العقبات فذللتها.

أولى العقبات وأبسطها معالجة هو عدم احتواء الكتابة العربية حروفا معينة، وبصورة خاصة بعض الحروف الصوتية، موجودة في اللغات الغربية مثل حرف V وP وG. وقد عولجت هذه العقبة معالجة معقولة بإجراء تعديلات في التنقيط على الحروف العربية المقاربة في مخرج اللفظ للحروف المفتقدة. ولكن هذه المعالجة لم تدخل في دور التعميم الشامل، وهذا قصور يمكن تلافيه ويجب تلافيه.

وثمة عقبة أخرى هي التي تتعلق بتعريب المصطلح الأجنبي. وقد لعب التحرج والتصلب دورهما في تضخيم هذه اللغة حين أصر بعض المعنيين باللغة العلمية على تعريب كل مصطلح ورفض ما لم يتوافق وزنه وتركيبه مع أوزان الصيغ في اللغة العربية وتركيب الكلمات فيها. ولا شك بأن التنقيب عن كلمات عربية مهملة ومنسية كان العرب القدماء قد استعملوها فيما يقابل مسمياتها العلمية اليوم، كبعض مصطلحات التشريح والفلك وعلم النبات، عمل جليل يغني لغتنا العلمية بمفردات كثيرة نحن في حاجة إليها. إلا أن الطوفان المستمر من المصطلحات العلمية الجديدة يجعل الإصرار على اكتشاف كلمة قديمة لكل مصطلح جديد، أو تعريب هذا المصطلح الجديد بكلمة عربية فصيحة، ثم فرض هذه الكلمة على الأوساط العلمية العربية المتباعدة والمنقطع بعضها عن بعض، أمرا مستحيلا ويضطر العلميين العرب إلى قبول المصطلح الأجنبي بأقل ما يمكن من التعديل في لفظه. لقد ترجمت بعض المدارس مثلا كلمة هرمون بكلمة "حاثة"، وفيتامين بكلمة "حيامين"، إلا أن الأيام وأقلام الكتاب أثبتت المصطلحين العلميين كما وردا في شكلها الأجنبي، ولم يحل ذلك دون اندماجهما باللغة العربية العلمية أو أن يصبحا كلمتين شائعتين على ألسنة العامة من الناس.

ويبدو أن الاشتقاق في المصطلح العلمي وتطويعه لأصول الاشتقاق في اللغة العربية هو أشد العقبات بروزا. فاللغات العربية تقبل كلمات مؤلفة من

عدد من الحروف يفوق العشرة أو العشرين، مركبة من جذور متعددة، مضافا إليها زوائد كثيرة. أما اللغة العربية فإن تحملها للكلمات الكثيرة الحروف عسير، ولذا يلجأ المعربون إلى الكلمات المتعددة للتعبير عن المصطلح العلمي الواحد. فنقول فرط التحسس كترجمة Hypersensibilité إلا أن هذا يخلق لنا متاعب يصعب التغلب عليها في الاشتقاق الوصفي أو الفعلي لمصطلحات مثل هذه. نستطيع أن نقول أكسدة لفعل Oxydation المشتق من أكسد، ونصرف فعل هذا المصدر بطريقة صحيحة. ولكن المسألة تتعقد حين نريد ترجمة Réoxydation وDésoxydation وتصريف الفعل المناسب لكل منهما. وعدا ما هو أكثر تعقيدا من هذين مما تدخل فيه الزوائد اللاتينية واليونانية مثل Ere, ana, dis, Extra-intra ما كان منها بسيطا أو مركبا. ويبدو أن الحل في هذه الحالة وأمثالها هو قبول المصطلح العلمي على حاله أو بقليل من التعديل وترويض اللغة على ألوان من الاشتقاق مرنة وأن لم تتساهل فيها الكتب القديمة أو الآذان المتصلبة.

غير أن كل هذه العقبات، على جدتها، لا تقف أمام الإرادة الصحيحة التي تقتضيها الحاجة الماسة إلى فرض اللغة العربية كلغة علمية عن طريق تدريس العلوم الحديثة لأبنائها بها وتوسيع مفرداتها بقبول المصطلحات العلمية الجديدة في مفرداتها. ولا يخفى علينا أن لغات كثيرة أشد عسرا في قواعدها وفي طريقة كتابتها من لغتنا قد طوعت للعلم (مثل اليابانية والعبرية) فلم تقف دون نفوق أبنائها في العلوم النظرية أو التطبيقية. وإذا كان ثمة حائل صحيح دون أن تصبح اللغة العربية لغة علمية ثم لغة عالمية فهو ليس في اللغة نفسها بل هو في قصور الهمة وضعف الثقة بالنفس.

مجلة "اللسان العربي": العدد الخامس (5)، من الصفحة 137 إلى 139. سنة النشر: 1967.